موسيقى

غنّت غادة شبير فتأنسن الحجر واشتعلت نار في المواقد الباردة والراية للمايسترو بسّام صالح

مي منسى

في مسرح بيار أبو خاطر، كان للموسيقى ليلة الأربعاء، حدثها الفني الكبير الذي تميّز بلقاء رفيع بين الأوركسترا الوطنية الشرق-عربية بقيادة المايسترو بسّام صالح وغادة شبير تلك التي إن غنّت ارتقت بأوتار حنجرتها فوق الخطابا الأرضية، رسولة وفاق وسلام وديمومة. الشعور بالسلام سرى مفعوله في نفوس الجمهور، في مستهلّ الأمسية، بلحنَين من الطقسين السرياني والبيزنطي الشائعين في أسبوع الآلام، تأمّل فيهما المؤلّف بسّام صالح، ليجعل منهما تحفة سمفونية تفوّقت حسنا وغنى على الجمل التقليدية الشعبيّة، القصيرة.

السيّدة الواقفة بثوبها الأسود في أمامية المشهد الأوركسترالي، تبدو لنا محاطة بهالة من التقشّف. هي والأوركسترا في لحمة واحدة، تتلقى المقدمة الموسيقية بمسامها، تعبّد لها طريق العبور إلى حيث الغناء ابتهال ومناجاة وعشق بين حبيبين. غادة شبير كعالم في الآثار، تنقّب في عمق التراث لتعثر على النادر منه والأغلى. هكذا صنعت تألقها في أصول الموسيقى الدينية والدنيوية، وصقلت موهبتها الصوتية في الموشّحات وتقاليد الموسيقى الشرق أوسطية والأندلسية العربية والسريانية والترانيم المارونية القديمة، حتى غدت مكتملة بالرسالة الحاملة إياها وزنة إنسانية، تصبو إلى زرعها في هذا الشرق الذي بات ضحية فن رخيص ومبتذل يتجنى على إرث عربي شاهق كان للشعر وحيه في إيلاد النغم وفي هذا اللقاء العاشق بينهما، يولد الصوت الرسولي حرّا، ابديا.

في هذه القائمة المختارة من أرقى الموسيقيين والشعراء، بدأت غادة شبير إطلالتها بقصيدة "روحان" للشاعر الكويتي عبد العزيز سعود البابطين وتلحين جاد غانم، بتوزيع أوركسترالي لإيلي حردان. كلمات، وإن لم يصلني منها سوى بعضها القليل، غير أن النغم المتعالي من حنجرة هذه الساحرة، كان كطيور

(ناصر طرابلسي)

تتسامى في العلى تعظيما للغة الحب.

وإذا كان الثوب الأسود حلّتها في هذه الأمسية، فإن الصوت كان يرتدي لكل قصيدة ونغم وشاحه. فمن الأخوين رحباني والذاكرة الفيروزية المنقوشة في البال كينبوع، كانت غادة شبير على هذا الخط النوراني، تلقي لليل بوتر مشعّ بالنور، قريب من الصلاة، "أنا وسهرانة". وإذا ما انتهى السهر، غابت هنيهات عنا تاركة للأوركسترا تحت راية المايسترو، لتقول إن الموسيقى لا هوية لها سوى المشاعر المتدفّقة منها. مقطوعتان حلّتا في برنامج الليلة، شاهدتان على كونية الموسيقى، تجد لها وطنا أينما حلّت: "منارة لشربل روحانا، و"النهر الخالد" و"حياتي" لمحمد عبد الوهاب. كنا نسنّ السمع حين يعلو الناي منفردا، مشتاقا، من منارة شربل روحانا، إلى أن يتلقّانا القانون، ككرجة الماء في نهر عبد الوهاب الخالد. مختارات تسافر إلى وسع الكون حالما تفرد لها الأوركسترا سمفونية الخلود.

ثمّ عادت إلى الجمهور بأغنية من روائع ما غنّته أسمهان، "إسقنيها بأبي أنت وأمي". فكيف والكلمات للأخطل الصغير واللحن لمحمد القصبجي، نتخيّل احتواءها بحنجرة غادة شبير، ولا نقارن بينها وبين أسمهان. بأدائها المصقول بكنوز المقامات، مضت إلى هذه المغامرة العشقية، تجرع من الكأس ما يُجلي الهم عن القلوب، وتعيد الكلمات بصوت ليّنه الحب: "إملأي الكأس ابتساما وغراما/ فلقد نام الندامى والخزامى"

كم كنا نود أن يطول السهر مع هذه الأغنية، ولكن كي يبقى الحب سيد الليلة، عادت إلى الشاعر عبد العزيز سعود البابطين تغني من شعره "لي حبيب عشقه دوّبني" بألحان وجدي شيّا وتوزيع أوركسترالي لبسام صالح، والقانون المنفرد يمهّد للأوركسترا أن تحاور تلك التي إن غنّت أنسنت الحجر وأشعلت نارا في المواقد الباردة. في الاستراحة المعطاة لها، تكون الموسيقى بكامل الآلات تستعيض عن الغناء بألحان تولّد في الخيال لوحات حيّة، كمعزوفة "الحلم" التي كتبها بسّام صالح، لإيقاع دوراني، نخاله كرقصة الرومبا بين حبيبين، حتى إذا قلب الهواء الصفحة لمناخ موسيقي آخر كانت اللازمة في الانتظار، تعيد الدورة الإيقاعية إلى البدايات. فمن بسّام صالح إلى زياد رحباني كان سفر لذيذ إلى "ميس الريم"، في روعة اللوحات المتوالدة من ذاتها، تبثها الأوركسترا بدينامية أدائها، زلاغيط وأسهما ناري.

الختام شاءت به غادة شبير ما يشبه الاعتلاء إلى مصاف الروح، مع أغنية "أقول لطفلتي" من ألحان الأخوين رحباني، و"سكن الليل" من كلمات جبران خليل جبران وألحان الأخوين. في هذه التواشيح الأثيرية، بدت الأوركسترا مدعوة لتتآخى مع بهاء الصوت ورسوليته.